دراسات في الآداب الأجنبية

فن القصة عند هنري جيمس

بقلم الدكتورة عقيلة رمضان

« انني اعشق حريتي . واذا كان هناك شيء في العالم اتمسك به فهو استقلال ذاتي . »

هذه الصيحة من اجل الحرية والاستقلال الشخصي ، والتي اصبحت شعارا ينادي به ابطال القصص في الادب الغربي المعاصر ، وصارت عند البعض فلسفة وعقيدة ، نلتقي بها في كل صفحة من كتابات « جان بول سارتر » « والبير كامي » و « جان انوي » ، رددتها قبلهم « ايزابيل آرشر » في اواخر القرن التاسع .

وايزابيل ارشر هي بطلة رواية «صورة سيدة Portrait of a Lady » اعظم ما خطه قلم هنري جيمس الكاتب الذي نتناول اعماله في هذا المقال.

عاش هنري جيمس عند ملتقى قرنين . فهو قد ولد في عام ١٨٤٣ وتوفي في عام ١٩١٦ ، كتب خلال خمسين عاما ما يزيد على الثلاثين رواية طويلة ، وعلى يديه حققت القصة الامريكية نضجا سريعا لم تضف عليه الا القليل حتى وقتنا الحاضر . فقصص هنري جيمس ، باجماع الاراء ، تحقق كمالا فنيا لا يجارى . وانه لمن المفارقات العجيبة ان كاتبا يولد في العالم الجديد في امريكا وفي حقبة كان الامريكيون خلالها منصرفين الى التوسع المادي المطرد ـ ويرحل هو الى العالم القديم ، يرحل الى اوروبا ليرسي القواعد التي سارت عليها القصة الغربية في القرن العشرين من بعده .

لقد كرس هنري جيمس حياته كلها لتحقيق هذه الرسالة، وسرعان ما اصبح من اكبر علماء الفن . وصارت له نظرية شاملة استطاع هو نفسه ان يطبقها تطبيقا عمليا وبتفوق بعيد المدى . وانه وان كانت اعماله لم تلق حظها مما تستحقه من التقدير الجماهيري ابان حياته الا ان اثاره اخذت تمتد وتتزايد ـ حتى بعد مماته ـ حتى اطلقوا عليه اليوم ابا القصة الحديثة .

ولكن ، ما هي تلك الرسالة التي كرس لها هنري جيمس حياته ؟

هناك جمهرة من النقاد ترى في هنري جيمس رجلا يجلس الى مكتبه ليخط روايات ظوال بلا شعور وبلا احساس . انهم يعتبرونه عقلا بلا جسد وآلة كاتبة تخلق اشخاصا جامدة بلا حياة ، تدور حولها احداث قصص خلت من العاطفة . والكاتب الشهير « برنارد شو » واحد من هؤلاء . فقد قال ذات مرة : ان هنري جيمس تناول الحياة فاخضع فيها العاطفة للعقل وللذوق الفني المتحجر .

ويمكننا ان نرد على ذلك فنقول ان برنارد شو كان في الحقيقة يتحدث عن نفسه اكثر مما يتحدث عن كاتبنا الذي استطاع ان يقدم لنا اعمالا تتأجج فيها العاطفة الصارخة . ومن امثلة ذلك « الوحش في الغابة The Beast In The Jungle » ، ومواقف تصور ما يتعرض له شاب مراهق من الوان العذاب اثناء محاكمته في قصة « التلميذ The Pupil » وشخصيات تضطرم فيها العواطف وتتبلور مثل ديزي ميلر .

ولعل جيمس نفسه كان يرد على هذا الادعاء عندما اجرى على لسان احد ابطاله :

« انني اوجد حيث يوجد الشعور ـ انني ذلك المخلوق العجيب »

« الفنان صاحب الحساسية المنطلقة التي لا تعرف حدودا »

ولكن هذه الحساسية لا تخلو من تحليل ذهني عميق خاصة في الروايات التي انتجها في اخريات ايامه .

وهنري جيمس ـ ككل فنان اصيل يتخذ من الواقع مادة تقوم عليها رواياته . وهو ينظر الى الامور نظرة واقعية ويستلهم مثله العليا من عالم الواقع لا من تلك العوالم « الرومانسية » ، التي كانت طابع الادب الغربي طوال القرن التاسع عشر . والصورة التي يعرضها للمجتمع البورجوازي الاوروبي لا تقل واقعية عن تلك التي عرضها بلزاك وفلوبير وبروست .

ان واقعية هنري جيمس تتصل بسيكولوجية الافراد والجماعات . ولكنه حين يعرض للرغبات والدوافع لا ينتهج منهجا علميا تحليليا كما شاع في بعض الوان القصة الغربية التي انتشرت في القرن التاسع عشر ، واعتمدت على دراسات فرويير ويونج وغيرهما من علماء النفس . ولكن جيمس اعتمد على الايماءة والرموز الغامضة التي تشير من بعيد الى اغوار النفس البشرية في اعماق اللاشعور . فهو لا يعرض فلسفته وافكاره بطريق خطابي مباشر بل يضمن هذه الفلسفة بطريق غير مباشر تاركا للقارىء فرصة استخلاصها من سلوك ابطاله واحاديثهم والبيئة التي تجري فيها احداث ووقائع القصة .

ونحن نلتقي في كتاباته دائما بما يسميه « الرغبة في الحياة » . ويعني بهذا ، الادراك الكامل الذي يساعدنا على ان نحيط بما في الحياة من الوان جميلة حية دفاقة . وهو يطالبنا دائما بان نحيا حياتنا فيقول في قصة « السفراء The Ambassadors » :

« استمتع بحياتك قدر ما تستطيع فانه اثم كبير الا تفعل ذلك . »

«واذا انت لم تحي فما الذي يمكنك ان تفعله ؟ »

والحياة عنده فرص نغتنمها . فهي مليئة باشياء يجب ان تتحقق في الوقت المناسب اذا كانت تستحق على الاطلاق ، والا فاننا نفقدها الى الابد . واذا كان الانسان يجب ان يحيا حياته ، فهو لن يحقق ذلك الا اذا تمسك بحريته . ان الانسان ، في فلسفة جيمس ، يتمتع باحساس بالحرية وعليه الا يقتل هذا الاحساس . وقصته « صورة سيدة » تعتبر من اعمق القصص الادبية التي تؤكد ان الحرية صفة مجردة متأصلة في جوهر النفس البشرية .

ولكن هذه الرغبة الملحة في الحياة ، يشوبها احساس بالموت والفناء . فالحياة تقود صاحبها الى لون من الوان الاستشهاد . وشخصياته الفاضلة ، وهي تبذل قصارى جهدها كي تحقق حياة طيبة ، تتحقق ، في النهاية ، انها اسمى من ان تعيش في هذا العالم . والحرية

التي تنشدها حرية مثالية تنتهي بها الى الرغبة، لا في تحقيق الحرية في هذا العالم ، بل في التحرر من هذا العالم . وفكرة الحيا ةوالموت هذه فكرة أصيلة في الاديب الاوروبي توارثها عن الفكر الاغريقي القديم.

وقد ندد هنري جيمس في كتاباته بالاتجاه المادي في الحياة الغربية ودعا الى المحبة كاساس للعلاقات بين الناس . ففي رواية « رسائل اسبرن Aspern Papers » يعرض جيمس لعالمين ، احدهما يقوم على المحبة السامية فبقي وخلد ، والثاني يقوم على النفعية التي يكون فيها الحب تجارة اساسها المصلحة الشخصية ، كعلاقة الصحفي بالعانس حين تظاهر بحبها حتى يحصل عن طريقها على رسائل اسبرن الذي كان يحب عمتها حبا مثاليا خلده في اشعاره .

ومعظم قصص جيمس تدور حول حياة الامريكيين في اوروبا. وفيها يعقد مقارنة بين الحياة الامريكية الناشئة ببساطتها وسذاجتها وبين الحضارة الاوروبية العريقة الراسخة . وقد استطاع عن طريق ذلك ان يحقق ظاهرة طريفة نادرة . فادبه يتصف بطابع قومي وعالمي في نفس الوقت . وهو يحتفظ بخصائصه كروائي امريكي عظيم في الوقت الذي اصبح فيه فنانا اوروبيا ممتازا . وكان كاتبنا يدرك هذه الحقيقة ، فقد كتب مرة يقول :

« انني لا انردد لحظة أن أؤكد انني احاول ان »
« اكتب بطريقة تجعل من الصعب على القارىء »
« ان يقول انني امريكي اكتب عن انجلترا ، او »
« انجليزي يكتب عن امريكا . »

وادب جيمس – في مجموعه – يصور الحياة في معركة ، الشر فيها قوي جامح ، والجمال ساحر نادر ، والخير فيها ضعيف عاجز ، والحماقة فيها اصرار وتحد ، والشر يسير الامور ، والسفهاء يحتلون المناصب العليا ، والعقلاء المناصب الدنيا ، والانسانية ، في مجموعها ، ترزح في الشقاء .

ولكن العالم ليس وهما ولا خيالا ، ولا هو بحلم مروع نراه في نومنا . انما هو يلاحقنا ، في ساعات يقظتنا ، ونحن عاجزون عن ان نتناساه او ننكره او نتخلى عنه . اننا نرحب بالتجارب التي نمر بها ونمنحها كل ما تتطلبه من طاقات مقابل شيء قد يكون ضئيلا او كبيرا بقدر ما نساهم في توسيع مجالات شعورنا . وفي هذا الشيء الجديد يختلط الفرح بالاسى لكن فوق كل هذا توجد قاعدة راسخة واضحة المعالم منها نتعلم كيف تكون لنا ارادة، وكيف نبحث عن البصيرة والحكمة.

ان الفن وحده لا يكفي ، ولكن الاهم هو ادراكنا للحياة واحساسنا بالاخلاق ، وتفهمنا للطبيعة البشرية .

هذا هو فن القصة عند هنري جيمس سقناه في ايجاز . وفيما يلي سنتخذ من قصته « صورة سيدة » مثلا نرى فيه كيف طبق جيمس فيها اراءه ونظرياته تطبيقا عمليا وجاء العمل الفني متكامل البناء، يمكن ان يكون نموذجا يحتذى .

صورة سيدة « The Portrait of a Lady

نشرت هذه القصة سنة ١٨٩١ وتناول فيها جيمس نفس الفكرة التي يؤمن بها وهي اختلاف النظرة الامريكية للحياة عن النظرة الاوروبية لها . الا انه تناولها هذه المرة بفهم اكثر عمقا وانضج خبرة . كما عقد المقارنة بين الحياة الامريكية الناشئة ببساطتها وسذاجتها وبين الحضارة الاوروبية العريقة والمليئة بالشرور والاثام تفرق فيها الامريكيين الابرياء. كما تعرض فيها لمبدأ هام كان ولا زال يشغل الادباء وهو هل الفن للفن ام الفن للحياة .

تدور حوادث القصة حول فتاة امريكية شابة تواجه الحياة وهي تؤمن بالاستقلال الذاتي والحرية الشخصية . قابلتها عمتها في امريكا وتلحظ فيها « الرغبة في ان تحيا » وهي تعاني من الاحساس « بمجرد الوجود mere existence » ولا تستمتع بالحياة اذا هي ما بقيت على فقرها في امريكا . وتصحبها عمتها الى انجلترا حيث تعيش مع زوجها وابنها رالف . ويعجب رالف بجمال ابنة خاله وبذكائها وطموحها، فاراد ان يحقق لها ما تصبو اليه نفسها بان جعل اباه يوصي لها بمعظم نصيب ابنه رالف من التركة اذ كان مصدورا ويشعر بدنو اجله .

ثم تساعر ايزابيل آدثر مع عمتها الى اوروبا عقب وفاة والد رالف ، وتقابل أزموند في فلورانس الذي استطاع ان يجذبها اليه ويثير شغفتها ويوهمها بحبه لها وذلك بعد ان اغرته مدام ميرل بثراء ايزابيل. واخيرا تقبل الزواج منه بعد ان اثارت ابنته فيها كوامن الاسى اذ كان ابوها ينظر اليها كما ينظر الى مجرد قطعة فنية متكاملة ، فقتل فيها كل مقومات الحياة .

وتتابع الحوادث فنرى أن ايزابيل تعسة في حياتها بعد ان اكتشفت حقيقة زوجها الذي اراد ان يجعل منها احدى التحف التي يهوى جمعها والتي تملأ بيته . كما اكتشفت ان اوزموند لا يشعر بشيء سوى بالفن المجرد من الحياة . ويزيد الطين بلة انها تقف على حقيقة زوجها وانه لا اخلاق له اذ تعلم ان مدام ميرل هي في الواقع ام ابنته غير الشرعية.

تعود ايزابيل الى رالف في انجلترا فتجده يعاني سكرات الموت ويكتشفان حب كل منهما للاخر . واذا كان رالف سيموت فان ايزابيل سوف تعيش على هذا الحب . ويموت رالف وتغرق ايزابيل في دوامة من الحيرة فيما يجب عليها ان تسلك من طريق . واذا هي في حيرتها يظهر لها خطيبها الامريكي السابق والذي تركته في امريكا ويجدد حبه لها ويعرض عليها السعادة فلا يزيدها هذا الا تمسكا بالواجب فتعود الى زوجها ازموند .

وهكذا نرى في هذه القصة التطور الجمالي « aesthetic » والاخلاقي « ethical » لنفس بشرية خلال مراحل مختلفة من الخبرات فوصلت الى اعلى درجات الفضيلة والتمسك بالاخلاق الكريمة والمبادىء، اذ على الرغم مما ينتظرها مع زوجها من تعاسة فهي لا تنسى واجبها كزوجة فتعود اليه .

واننا اذا عرضنا لطريقة جيمس في كتابة هذه القصة نجد انه قد لجأ الى اسلوب جديد وهو وجهة نظر الشخصية الرئيسية « point of view » . ففي الواقع ان هذه القصة هي اول قصة نموذجية اتبع فيها هنري جيمس الاسلوب الجديد new technique في اظهار الاراء والاحداث من خلال وجهة نظر الشخصية الرئيسية ، وليس على لسان الكاتب كراوي للقصة . كما ان بقية شخصيات القصة لا عمل لها الا ابراز الجوانب المختلفة للشخصية الرئيسية .

كما نجد ان جيمس قد تفادى التعبير المباشر واستعمل بدلا منه الايماءة والرموز والاشارة . فنرى انه لم يقرر صراحة او مباشرة مبدأ « الحياة فوق الفن ولا فن بلا حياة » ولم يعرض اراءه وفلسفته بالطريق الخطابي كما سبق ان ذكرنا بل يترك القارىء يستخلص بنفسه تلك

اخر منشورات دار الاداب

		ق٠ ل
اعياد (قصص)	لعبد الله نيازي	٢٥٠
لا بحر في بيروت «	لغادة السمان	٢٥٠
الظمأ والينبوع «	لفاضل السباعي	٢٥٠
حتى يبقى العشب اخضر	لاديب نحوي	٢٠٠
ثورة الفقراء	لرجاء النقاش	٢٠٠
سلطنة الظلام في مسقط وعمان	لعوني مصطفى	١٥٠
كامو والتمرد	ترجمة سهيل ادريس	١٥٠
قصص كامو	ترجمة عايدة ادريس	٤٠٠

الاراء والفلسفة من تصرفات ابطاله وما يجري على لسانهم من احاديث ومما يدور في القصة من وقائع . فنرى ايزابيل ينتابها شعور رهيب حينما تطأ قدمها قصر زوجها اوزموند اذ تجد في قرارة نفسها ان دخول هذا المكان يعني انه لن يسهل عليها ـ بعد ذلك ـ الافلات منه . وفي موقف اخر ترى ابن عمها رالف في حديقته مستندا الى قاعدة تمثال « تربسكور Terpischore » يصور احدى عرائس البحر ترقص في انطلاق . وهكذا ترى ايزابيل الحرية والحركة في رالف وفي طريقة الحياة التي يمثلها لانه يرى الحياة فوق الفن وتقارن تلك الحياة بحياة الكلفة والموات التي يحياها اوزموند والتي يغلب فيها الفن المجرد على الحياة الواقعية المنسابة . هذه الصورة الرمزية تلقن ايزابيل ومن ورائها القارىء ، الدرس الذي يعنيه جيمس : « ان الحياة فوق الفن او لا فن بلا حياة . »

كذلك نرى ان هنري جيمس لا يروي القصة كما كان يفعل الكتاب الذين يقومون بدور الراوية بل لجأ الى الطريقة المسرحية ينقل فيها للقارىء صورة لمسرح الحوادث بدقائقه وتفصيلاته ثم يعرض بعد ذلك لافكار واحساسات ابطال القصة عن طريق الحوار ويترك القارىء يعيش معهم وفي عقولهم ويحس باحساساتهم دون ان يفرض شخصيته هو او رأيه كما فعل ديكنز او تكري اذ كانا يعرضان على القارىء رأيهما وحب شخصية معينة او كرهها في حين كان جيمس يترك ذلك للقارىء يتخذ الجانب الذي يراه . ولهذا اتهمه كثير من النقاد ـ كما سبق ان ذكرنا في اول المقال ـ بالجمود ورأوا فيه رجلا يكتب بلا شعور ولا احساس واعتبروه لذلك عقلا بلا جسد .

واذا ما وصلنا الى نهاية القصة لا نجد نهاية محددة انتهى اليها جيمس بل يترك القصة تنتهي بلا نهاية محددة فكأنه قد اقتطع القصة من الحياة في فترة معينة كما كان يسميها a slice of life ـ تنتهي بنهاية تلك الفترة الزمنية ويترك القارىء بعد ذلك يتخيل ما يشاء من الحلول والنهايات . وقد ضايقت نهاية قصته «صورة سيدة» قراء عصره اذ اخذوا يتخبطون في مصير البطلة وما ستفعله وهل ستستمر في حياتها الزوجية على ما فيها من تعاسة وشقاء وكراهية ام ستهرب الى من يحبها ويعدها السعادة .

وعند تحليلنا للحوار نرى ان هنري جيمس اهتم به وكان يجريه بمهارة ولباقة ويعتمد على الايماءة او الاشارة فيحملها معاني ورموزا تكشف عما يجري في عقل الشخصيات من عمليات فكرية ومشاعر واحساسات . فنرى مثلا اوزموند يتناول فنجالا ، هو في الواقع تحفة، فتنبهه مدام ميرل لكي يحافظ عليه فيرد عليها « انه مشروخ بالفعل ». وكانت هذه العبارة كافية لان يعطينا هنري جيس صفحات طوالا نعيش خلالها في عقل مدام ميرل ونحن نقارن بين الفنجال المشروخ وماضيها العيب والحسرة على ما آل اليه حالها .

لقد عرف عن جيمس حبه العميق للرسم ولذلك نجد انه قد تأثر كثيرا بذلك فجعل من كتاباته لوحات فنية يختار لها الفاظا وعبارات لا يمكن الاستغناء عنها او استبدالها فيخرج عمله وحدة متكاملة كلوحة معبرة تكون كلماته فيها بمثابة اللمسات التي تزيد اللوحة جمالا وفنا وتعبيرا . وهو اذ يفعل ذلك ينفس عما في نفسه ويرى فيه تحقيقا لامنيته ان يكون رساما ولكنه فشل كرسام فعوض شعوره بالفشل كرسام وحققه ككاتب . وفي الواقع عمل جيمس فترة من الزمن في بداية حياته ناقدا للرسم .

ولم يكن اختياره ودقته في انتقاء اللفظ صناعة بل كان اسلوبه في الحياة الطبيعية فكان يتعثر في الحديث لمدة طويلة حتى يعثر على الكلمة المناسبة « le mot juste » التي لا تحل محلها كلمة اخرى.

ونلحظ ان ايزابيل وهي تواجه الحياة وتجاربها انما هي تمثل حقيقة جيمس ونفسيته فلقد كان والده الفيلسوف المشهور يؤمن بترك ابنائه يواجهون الحياة ويشقون لانفسهم الطريق الذي يرونه محققا لامانيهم ، فلم يلحقهم بمدارس بل كان يحضر لهم المدرسين ويعتمد اكثر ما يعتمد في تعليمهم على الاسفار يجوبون فيها الاقطار والامصار منذ نعومة اظفارهم . واول رحلة لجيمس كانت وهو ما زال طفلا رضيعا .

لم يكن النقد القصصي في عصر جيمس يعتمد على قواعد واسس سليمة فوضع جيمس الاساس السليم للنقد الادبي الصحيح وكانت اهم تلك القواعد هي :

اولا : لا خلاف بين القصة الواقعية والقصة الخيالية ، اذ ان المفروض في الفن ان يمتد الى الواقع فيصقله ويمزج الواقع بالخيال .

ثانيا : لا خلاف كذلك بين القصة التي تعتمد على التحليل في رسم شخصياتها novel of character وبين القصة التي تعتمد على الحوادث novel of incident . اذ لا يمكن ان تستغني احداهما عن الاخرى ويشبه هذا التلازم بالابرة والفتلة .

ثالثا : اهم ما في القصة عند جيمس ان تكون مسلية مشوقة يعيش فيها القارىء ويشترك مع شخصياتها في انتظار ما سيأتي بعد.

رابعا : يرى جيمس ان مجرد الايماءة او النظرة تتساوى مع الحادثة المثيرة التي كان يعتمد عليها كتاب عصره . فمجرد جلوس امرأة في وضع معين وتسرح بفكرها ونظرها كاف لديه لان يبني عليها قصة نعيش معها فيما يدور بخلدها من افكار واحاسيس ونعاني مما تعانيه من مآس مرت بها . فعندما اراد جيمس ان يبين لنا شقاء ايزابيل وما تعانيه من شقاء وتعاسة في حياتها الزوجية لم يسرد لنا الحوادث التي مرت بها خلال السنوات الثلاث التي مرت بها وانما جعلنا نعيش مع ايزابيل عندما جلست امام المدفأة ذات ليلة وعادت بفكرها الى الوراء تستعرض ما مر بها من مآس واثرها وانطباعاتها عليها فانتقلت الينا واحسسنا بالهوة التي بينها وبين زوجها دون ان يذكر لنا شيئا من هذا كله صراحة .

وكان هذا الاسلوب بداية عصر جديد في القصة تبعه فيه كتاب القرن العشرين Dorothy Richarson و J. Joyce و Virginia Wolf وسمي هذا الاسلوب بـ « Stream of conciousness » اي « توارد الخواطر » .

القاهرة — عقيلة رمضان

سلسلة المسرحيات العالمية

١ ـ البغي الفاضلة وموتى بلا قبور

بقلم جان بول سارتر

ترجمة الدكتور سهيل ادريس والمحامي جلال مطرجي

الثمن ٢٠٠ ق. ل

٢ ـ ماريانا

تأليف فديريكو غارسيا لوركا

ترجمة شاكر مصطفى

الثمن ٢٠٠ ق. ل

٣ ـ هيروشيما حبيبي

تأليف مرغريت دورا

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

الثمن ٢٠٠ ق. ل

٤ ـ لكل حقيقته

تأليف لويجي بيراندللو

ترجمة جورج طرابيشي

الثمن ٢٠٠ ق. ل

٥ ـ تمت اللعبة

تأليف جان بول سارتر

ترجمة مجاهد ع. مجاهد

الثمن ٢٠٠ ق. ل

منشورات دار الاداب ـ بيروت